تشكل الهوية الدينية في الجزائر

أ .بيران بن شاعة

جامعة الأغواط

ملخص :

تعرف الظاهرة الاسلامية في الجزائر ، منذ بداية الإنفتاح السياسي و التحول إلى التعددية ، تعددا سوسيولوجيا ، حيث عرفت الجزائر إنفتاحا على الإسلام السياسي مبكرا ، وطرحت مشاريع متباينة منها ما ينتمي إلى الموروث الحضاري ، ومنها ما شكل إمتدادا لمدارس بعيدة النشاة على المجتمع الجزائري ، وعرفت تجربة الإسلام السياسي في الجزائر فشلا كبيرا ويعود السبب الى موقف التوجهات الغير دينية ، وكذلك أداء قياداتها ، والصور النمطية حولها .

Résumé:

Phénomène islamique en Algérie depuis le début de l'ouverture politique et la transition vers une sociologie pluraliste et multiculturel, comme Algérie ouverte à l'Islam politique au début, proposer divers projets, y compris du patrimoine culturel appartient à et est une extension de l'autre écoles grandissant sur la société algérienne et une expérience connue de l'Islam politique en Algérie un échec en raison de la position des orientations non religieuses, ainsi que la performance de leurs dirigeants et les stéréotypes.

مقدمة :

يعرف واقع الظاهرة الدينية في الجزائر منذ بداية الانفتاح السياسي والتحول إلى التعددية تعددا سوسيولوجيا، كغيرها من البلدان العربية والإسلامية الأخرى، وقد عرفت الجزائر الانفتاح على ظاهرة الإسلام السياسي مبكرا، حيث تموقعت هذه التوجهات في الساحة السياسية وأهم ما ميزها هو أنها طرحت مشاريع متباينة منها ما يشكل جزءا من الموروث التراثي للمجتمع الجزائري ومنها ما يشكل امتداد لمدارس إسلامية نشأت في بيئات اجتماعية أخرى، لكن تجربة الإسلام السياسي عرفت فشلا ذريعا ومعها توقف المسار الديموقراطي وكان من بين أهم الأسباب هي الصورة النمطية التي حملتها التيارات الأخرى عنها، بالإضافة إلى مواقف هذا التيار وتصريحات بعض "قياداته وآرائهم المعلنة التي أشعرت الآخر بالخطر القادم الذي يهدد كيان الدولة، ولأن الآراء والمواقف من القضايا الاختلافية وخاصة إذا أعطيت لها الصبغة الدينية ستكون أفضل تعبيرا حسب رأينا عن الموقف من الآخر"

1- الدين في المجتمع الجزائري :

تشكلت هذه الهوية الجزائرية من خلال مكونات أساسية هي: الإسلام كدين،والعربية لغة و إنتماء و البربرية جذور إثنية، وقد إمتزجت هذه المكونات حتى أن الإنسان الجزائري لا تتجاذبه هذه المكونات بقدر

ما كانت هذه العناصر توحده مع من يحملون هذه الصفات المشتركة. التي كانت دائما حافزا للدفاع عن المقومات و المكاسب المشتركة ضد كل أنواع الإستعمار ،التي عرفتها وآخرها الإستعمار الفرنسي ، الذي لم يكن يفرق بين الجزائريين فكان يلقبهم تارة بالأهالي أو المسلمين أو البربر أو العرب، كما أنه حاول استهداف الهوية التي كانت الرابط بينهم و ذلك من خلال إثارة النعرات الإثنية أو محاولات التنصير، وإستغلال العامل اللغوي وذلك باستهداف التعليم العربي، ورغم أنه استطاع أن يزيل بعض ملامح الإنتماء، ساعده في ذلك سنوات الإستعمار الطويلة (132 سنة) إلا أنه لم ينجح في إزالة روح الإنتماء التي بقية راسخة وكانت الدافع الأول لمقاومته ورغم أن قادة الثورة لم يكن فيهم من تلقى تعليما دينيا وعربيا بل منهم من تلقى تعليمه في المدرسة الفرنسية إلا أن بيان أول نوفمبر كان مؤكدا على الإنتماء العربي و الإسلامي للدولة الجزائرية.

عرفت الجزائر مثلها مثل دول المغرب العربي أشكالا من التدين منها من كان تقليديا وشعبيا ومنها من كان متأثر بحركات الإصلاح المشرقية ومنها من كان كرد فعل على الظروف و الواقع الاجتماعي و السياسي والثقافي الذي كانت تعيشه الجزائر في كل مراحلها التأسيسية.

2 – مصادر التدين الجزائري :

2-1- الإسلام الصوفي:

يكاد يكون الإسلام الصوفي خاصية يتميز بها المغرب العربي ليس من حيث التصوف بحد ذاته لأنه موجود في كل المشرق في مصر، سوريا، العراق... لكن من حيث الممارسة و الانتشار و الحضور التاريخي وتأثيراته على المستوى السياسي و الثقافي و الاجتماعي .

التصوف هو شكل من أشكال التدين " تجربة فريدة تنطلق من العزل والتقشف و التأمل و يأتى صاحبها الكرامات، وتؤدي إلى القيام بأعمال تتفق و الإسلام الصحيح"(1) في نظر المتصوفة هذه القدرة التي تجتمع في فرد ما يتحول إلى شخص استثنائي بالنسبة للآخرين من حوله و تتحول هذه الممارسة الفردية إلى ممارسة اجتماعية، و هذه التجربة الفردية إلى ظاهرة اجتماعية، وتظهر من خلالها الطريقة التي يتميز بها هذا الشيخ و يعتنقها معه الجماعة، ثم تنتشر ويصبح لها مورديها، وحتى بعد وفاة هذا الشيخ تبقى كراماته وقدراته لذلك يصبح ضريحه محجاً ، وتتأسس في محيطه الزاوية المؤسسة الدينية التي تمارس بها الطقوس والعبادات وكذلك تتلى فيها الأذكار والدعوات إلى الله يكون فيها الشيخ واسطة للقبول وهذا ما يدعى بالتبرك.

إذا كان التصوف مصدره المشرق وقد ظهر خلال القرن الثامن ميلادي و أشهر من عرف عنه التصوف الحسن البصري (المتوفى 728م) ويرى ابن خلدون أنه " شكلا من أشكال معرفة الشريعة و الإقتداء بسلوك الصحابة، لجهة التقوى والإيمان المطلق بالله، والابتعاد عن لذات وخيرات هذا العالم"2.

1- جورج الراسي ، **الدين و الدولة في الجزائر**، دار القصبة، الجزائر. ،2008 ص 211

- نفس المرجع ، ص 210 2

وهذا ما يطلق عليه الاعتقاد و يشترك فيه كل المتصوفة لكن مظاهره تختلف من مكان لآخر أو لنقل من طريقة لأخرى، حيث يبرز الاختلاف في الممارسة والكرامات وطريقة الذكر التي تميز طريقة على أخرى، وهذا الشكل من التصوف الذي يمارس في إطار أكثر تنظيما و الذي تميز به المغرب العربي وبالأخص الجزائر، كان له اعتبارات وظروف ارتبطت بالخطر الأوربي على السواحل الجزائرية وهذا التهديد كان لابد من مقاومته وبالأخص بعد تخاذل الحكام والولاة في رده فقد شهدت الكثير من شواطئ الجزائرية هجمات من الإسبان على وجه الخصوص خلال القرن (17/16م)، خلال هذه الفترة حمل لواء الدفاع (الجهاد) العلماء والشيوخ الذين أقاموا رباطات لحراسة الثغور، و تحولت من وظيفة عسكرية إلى زوايا ومدارس لتعليم علوم القرآن، و ساعدها تدهور الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية التي كان سببها حالة الضعف و الانحطاط والتخلف عن الماضي وعن العصر التي شهدها العالم الإسلامي ، و بالأخص المغاربي بالإضافة إلى إنحدار القيم الدينية و الأخلاقية في مجتمعاته، هذا ما جعل المغاربة يميلون إلى التصوف كحالة من العودة إلى الإسلام الصحيح و النقي الذي يؤكد على توازن الجانب الروحي والأخلاقي، وبرزت العديد من الزوايا التي اضطلعت بكثير من الأدوار والوظائف الدينية والإجتماعية و الإقتصادية والسياسية، كما أنه لم يقتصر موريدها على فئة اجتماعية بعينها أو مجال جغرافيا معينا، لكن أصبحت الشكل الديني الأكثر بروزا وتأثيرا واستقطابا في تلك المرحلة.

لأن الزوايا كانت بمثابة التنظيمات الحامية للإسلام، فكان لابد لها من الانخراط في النضال لمحاربة أي هجمة استعمارية وبالأخص إذا كانت تحمل طابع العداء للإسلام، لذلك فقد انخرطت مبكرا في محاربة الإستعمار الفرنسي، الذي وجد في طريقه رموزا تسلحوا بالقدرة على التعبئة و الاستعداد للشهادة من أجل الحفاظ على الدين و الأرض و العرض، فقد قاد الشيوخ الطرق بأنفسهم المعارك ولم تمنعهم المكانة الدينية ولا المكتسبات الشخصية بل دافعوا بأبنائهم و أموالهم، وكان هذا له الأثر الأكبر في نفوس أتباعهم رغم عدم توازن القوى بينهم والمستعمر .

لقد دشنت الزوايا و الطرق مرحلة مهمة في تاريخ الجزائر الحديث، فقد قاد شيوخها ورموزا المقاومات الشعبية (الأمير عبد القادر 1832م، بوبغلة 1845م، ثورة الدرقاوة، ثورة بوزيان 1848، الزعاطشة، لالة فاطمة نسومر 1851، الحداد المقراني1871،أولاد سيدي الشيخ 1864)" فهذا الدور للإخوان الصوفيين شكّل سمة أكثر غرابة للإسلام المغربي، فقد لعبت الصوفية في الأماكن الأخرى من العالم الإسلامي دورا أقرب إلى الاستسلام الكامل للتأمل الداخلي دون مقاومة، كما كان دورها أقل نشاطا في المجتمع، ففي الأزمة التي كان فيها تذمر شعبي من النظام الحاكم . كان الطرقيون وغيرهم من العناصر الذين ينتمون إلى "الإسلام الشعبي " يوفرون الأساس التنظيمي و القيادة لمقاومة السلطات"(1)

---

1 مايكل ويليس ، **التحدي الإسلامي في الجزائر الجذور التاريخية والسياسية لصعود الحركة الإسلامية** ، شركة المطبوعات ، بيروت ، ط1 ، 1999 ، ص23

أدرك الإستعمار الفرنسي سر قوة النظام و تماسكه الاجتماعي في المجتمع الجزائري، القائم على أساس ديني، لذلك عمد إلى منع ممارسة الإسلام وتعليمه فأوصدوا أبواب المدارس القرآنية، والغرض كان محوا الهوية العربية الإسلامية والأمازيغية ، وسعت إلى تنظيم الممارسات وأماكن العبادة بشكل رسمي، فحاولت استقطاب رجال الدين ليضفوا الشرعية على الخطاب الرسمي الفرنسي، وقد كان لبعض المحسوبين على الطرق الصوفية دور في تجسيد هذا الخطاب ، و البقية التزمت الحياد نظرا لسياسته الإستعمارية التي تميزت بالعنف ضد كل محاولة لإعادة بعث المقاومة. " والطريقة في هذا النطاق، يمكن وصفها بأنها شكل من أشكال التنظيم الديني، السياسي، الثقافي ويغلب عليها طابع الغموض و السرية، وتتصف بعلاقاتها بالسلطة والاضطراب و التمرد في كثير من إلا حيان والمساندة والمؤازرة في بعض الأحيان الأخرى"(1) ،وهكذا انتقلت الطرقية من خطاب مقاوم إلى خطاب مدجّن ومهادن تكثر فيه المفردات التي تتحدث عن "القدرة" و "المكتوب" و أشكالا كثيرة من الشعوذة والدجل ..... بل وقد أصبح معارضا شديدا و هدفا مقصودا من قبل الحركة الإصلاحية..."(2)

2-2- الإسلام الإصلاحي :

بسبب التضييق الذي مارسه الإستعمار على الإسلام الصوفي وفي بعض الأحيان الإستبعاد إستطاع إستخدامه وتوظيفه في بعض الحالات من أجل تثبيت شرعيته، ومحاولة قبول الأمر الواقع في مقابل تحصل بعض أتباع هذا التوجه على مكاسب شخصية بعد أن كان أزاح القيادات الصوفية المقاومة إما قتلا أو نفيا ، وإستغل سذاجة بعضهم وأبدل نهجها الرافض للاستسلام فأصبح التصوف مرادفا لممارسات ومعتقدات تتنافى مع الإسلام الصحيح وكان هذا النوع من التدين يلقى تشجيعا من السلطات الفرنسية لأنه يصب في مصلحة القضاء على الهوية الجزائرية وبعدها الديني .

في هذه اللحظة التي أصبح التدين التقليدي الصوفي في الانحسار بدأ شكلا آخر من التدين ينبعث كبديل ، ليحمل لواء الإصلاح ومقاومة التدجين الديني الاجتماعي والتربوي و الأخلاقي و السياسي بدرجة أقل ، متأثرا بالحركة الإصلاحية المشرقية التي تدعو إلى إحياء التجربة الإسلامية (السلفية) كرد فعل على التخلف والهجمة الاستعمارية الغربية العسكرية والثقافية والتي تريد النيل من القيم الإسلامية ، وقد كان التلامذة المغاربة الذين درسوا في المؤسسات الدينية في المشرق الدور الأكبر في نقل روح الإصلاح إلى المغرب العربي بالإضافة إلى دور جامعة الزيتونة والتي كان الجزائريين أكثر ارتباطا بها نظرا لتقارب الجغرافي .

بالإضافة إلى الزيارات التي قام بها بعض العلماء المشارقة إلى المغرب العربي و التي كان لها أثرا رمزيا يقتدي به العديد من الجزائريين الذين احتكوا بهم"(3) لتكن الزيارة التي قام بها **محمد عبده** إلى الجزائر سنة 1903 كما يشير **علي مراد** إلى أن أول إشارات على رواج الأفكار الإصلاحية في الجزائر

---

1 أحمد حمدي ، **جذور الخطاب الإيديولوجي الجزائري** ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، 2001 ، ص72.

2 مايكل ويليس، مرجع سابق ، ص25.

3 Ali Mered : **le réformisme musulman en Algérie de 1926 a 1940**, karan , paris ,1971

كان عام 1904 طبع فيه مجلد – كتاب صغير– يعكس عنوانه وجود الحاجة إلى الإصلاح ، ولقد كان أكثر أنصار هذا التوجه من أساتذة وموظفين بالمدارس الدينية أي العاملين في الحقل الديني وبدأت تظهر بحلول عام 1913 ، بوادر أكثر وضوحا حيث صدرت مجلة (الإصلاح) وأعلنت كلمتها الافتتاحية في عددها الأول أنها غير سياسية وأنها تركز كل اهتماماتها على الإصلاح ومحاربة البدع الشيطانية ، وإذا كان هذا أمرا عدائيا للفساد والبدعة بما فيها فرنسية الشباب الجزائري، فإن أكثر تركيزها ظهر من خلال معارضتها العنيفة لحركة الأولياء الصوفية (المربوطية) .

خاضت الحركة الإصلاحية حربا على الطرق الصوفية أو الإسلام الشعبي كما يسميه البعض و التي كانت تعتبرها من أهم مظاهر التخلف وقد كان هذا الصراع محتدما " ربما لم يصل الصراع في أي بلد آخر الأبعاد التي أخذها في الجزائر وذلك نتيجة لظروف اجتماعية وثقافية وسياسية معينة (1).

فقد لعب الأولياء دورا بارزا قبل الاستعمار وبعده كما رأينا سالفا ، فكانوا يسيطرون على الأرياف على وجه الخصوص أين كانوا يتمتعون بسلطة دينية من خلال الزوايا المنتشرة بشكل واسع دون منافس "ويبقى المسلمون الجزائريون مؤمنين ومحافظين على طرقهم وانخرطوا بنفس الضمير الطيب وحتى الحماس في عقيدة تكريم الأولياء "(2)

في هذه الفترة برز رجل يعد رمزا للإصلاح في الجزائر وكان من أهم اهتماماته الحفاظ على الهوية الجزائرية ورصيدها الحضاري وانتمائها العربي و الإسلامي ، فقد كان **ابن باديس** من أسرة برجوازية عريقة ومحافظة في مدينة و قسنطينة، وكان له طموحات للعمل في المجال الإصلاحي فأسس مع مجموعة من الطامحين إلى العمل في هذا المجال جمعية العلماء المسلمين يوم: 05ماي1931 وكان أثر الحركة الإصلاحية المشرقية واضحا، فكانت تصلهم أعداد من **مجلة المنار** التي كانت يقوم عليها الشيخ " محمد رشيد رضا " والتي تشرح سبل الدعوة و الإصلاح .

وقد انتشرت بشكل واضح مظاهر الإصلاح في قلوب الجزائريين بفضل الحركة الإصلاحية التي تميز بها الفاعلين في إطار هذا التنظيم والذي سبق الإعلان عنه شرح معالم هذا الطريقة من خلال اعتماد المنبر الصحفي وذلك بإصدار جريدة (الشهاب) 1925، البصائر19، وكانت أهم أهدافها التربية ومحاربة الآفات الإجتماعية وتعميم التعليم و استطاعت أن تحقق أهدافها و تجسد ذلك في الاحترام الذي حظيت به لدى الجزائريين ، رغم التباين الواضح في مراكز نفوذها في الشرق كان يمثل معاقلها الرئيسية وبعض المناطق في الوسط و العاصمة لكنها أقل نفوذا في الغرب الجزائري الذي يعتبر المعقل الرئيسي للطرق الصوفية، كما أنه من الواضح إستقطابها بشكل خاص ، قطاعات من السكان أكثر من قطاعات أخرى ، وقد

1 Ibid , p53.

2 Charles robert Augeron , **les algérienne musulmans et la France** ,(1977 – 1919) , vol : II , paris , 1968 , p903.

رأى أن البرجوازية الصغيرة من المثقفين والتجار قد كونت الدعامة الرئيسية ، للقصبة الإصلاحية على الصعيدين المادي و الأخلاقي"1

واعتمد الجمعية على المساجد و الأندية و حلقات الدعوية في نشر قيم الإصلاح وأهدافه فكانت تعالج المشاكل الإجتماعية من وجهة نظر دينية في محاولة لتخفيف من واقع التخلف حتى أضحت " حركة الإصلاح الجزائري ، وفي غضون عشر سنوات فقط حزبا ديننا حقيقيا حزب نظم آلة دعائية فعالة ، وانتهى إلى فرض نفسه على اهتمام القطر برمته – بما فيه الإدارة كحركة تتميز بدينامية منتصرة"2

ومن الجدير بالذكر أن الطريقين كانوا في البداية من ضمن الداعين إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكانوا أعضاء مؤسسين فيها لكنهم سرعان ما انشقوا عنها و أسسوا جمعية علماء السنة الجزائريين يوم 15 سبتمبر 1932 الذي جاء إثر تجمع رجال الزوايا و الطرقيين المنشقين "(3) في هذا الوقت كانت الوجهة الإصلاحية في طريقها إلى السيطرة على الفضاء الديني في الجزائر،و كانت الصوفية تتراجع وتفقد مراكز نفوذها حتى أن الكثير من المتصوفة ،انخرطوا في هذه الوجهة و عندما أحست هذه الأخيرة بخطرها بادرت إلى " تجاوز انقساماتها لكي توجه اهتمامها لعدوا مشترك هي رابطة العلماء– العلماء الإصلاحيون – الذين كان هدفهم تنقية الإسلام من البدع وتكريم الأولياء و تقديسهم ، الأساس الذي تقوم عليه الطرق. و أثناء فترت النزعة المربوطة كان نموذج السلوك المسلم يشمل الانضمام في طريقة المثابرة على ممارستها ومن لم يشارك كان يعتبر أقل إسلامية"4 لقد أصبحت ية الطرق الصوفية في هذه المرحلة أقل تأثيرا لعدة ظروف من أهمها الهجوم الواسع والخطاب المفعم بالسخط على ممارساتها التي أصبحت توصف بالتخلف و الجهل وكان من أشد الناقمين عليها "الطيب العقبي" وقد عبر "بجلاء على مقته وبغضه لهذه الممارسات وإصراره على محاربتها حيث قال "أني لا أخاف أحدا إلا الله....ولا أخاف أحدا ولا أستسلم لأصنامكم ولن أطوف قط بضريح..... ولن أضع قماشي على قبر وأحج إلى مقابر، ولا أقدم أضاحي لأحد..... ولا أخاف الموتى ولا أعبدهم فكل ذلك شرك "(5) ، الظاهر من هذا القول أنه قريب من السلفية الوهابية التي تعتبر الأكبر عداء للصوفية ، فقد كان الطيب العقبي محسوبا على هذا التيار داخل الجمعية التي كان فيها تيارات متباينة.

ويمكن أن نلاحظ بشكل عام أن حركة الإصلاح الجزائرية الممثلة في جمعية العلماء وهي قريبة من السلفية المحافظة ، ومن خلال اقترابها من خطها الذي يركز بشكل كبير على محاربة التخلف و الجهل والخرافة والبدع التي تمس بالعقيدة ، كما أنه يمكن أن نضع ابن باديس في نفس الخط مع رواد الإصلاح في المشرق، رغم عزوفه عن السياسة ، ولم يسعى لمعارضة الإدارة الفرنسية ولم يدعوا صراحة للاستقلال فعلى

---

1 Ali Mered, op, cit ,p206.

2 Ibid. , p10

3 عبد الرحمن بن إبراهيم العقون، **الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصرة الفترة الأولى 1920- 1926** ، ج1 ، ط1 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص249.

4 lahouari Addi , L**'impasse du populisme**, ENAL , Alger , 1940 , p37.

5 أرنست غيليز، **الأساس الاجتماعي لسلفية الجزائرية** : تر : أبو بكر باقادر ، **مجلة الاجتهاد** ، العدد 47 –48 .

سبيل المثال نقرأ في مجلة "الشاهد" أغسطس1932 ، أنه ليس لقرائه أي رغبة سوى التمتع بحقوق أبناء العلم الثلاثي الألوان (أي العلم الفرنسي) مع قيامهم أيضا بواجبهم. وفرنسا الكريمة لا يمكن إلا أن تعطيهم يوما ما. لن يكون بعيدا ، كل الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون "(1) ولعل هذا الكلام هو سياسة بحد ذاتها ففي ذلك الوقت لم تكن قد نضجت فكرة التحرر، بل أنه من أبناء الحركة الوطنية من كان يدعو إلى الاندماج ، وربما كان محاولة لمهادنة الإدارة الفرنسية حتى لا تحل الجمعية وتتوقف بذلك جهود الإصلاح ولعل مقولة ابن باديس المشهورة تنسخ هذا التوجه حين عبر عن موقفه الرافض للاستعمار " لو قالت لي فرنسا أن أقول أشهد أن لا إله إلا الله ما قلتها "

و كان إتهام الصوفية لجمعية العلماء الجزائريين "ظهرت هذه الفئة المغرورة – يعني جمعية العلماء المسلمين– لنشر الوهابية وتزيينها في قلوب العامة السذج وقامت بالدعاية لنشرها في حفلاتهم ودروسهم" (2)

إذا كانت الجمعية قد لعبت دورها أثناء بداية القرن ، فهي في منتصف القرن ومع بداية الثورة التحريرية، كانت غائبة عن هذا الفعل ولم تعلن انضمامها إلى جبهة التحرير الوطني التي ذابت فيها كل الحركة الوطنية مع التباين الزمني إلا سنة 1956 وهذا ما يدل أن الجمعية كانت تحاول أن تنئ بنفسها عن الفعل السياسي وهذا كان سببا في ترددها في اتخاذ القرار السياسي ، وكان هذا عاملا من العوامل التي جعلت منها تنسحب من الساحة ، تاركة المجال أمام جبهة التحرير الوطني التي حملت على عاتقها مسعى التحرير فكسبت الشرعية الثورية أثناء الثورة وبعدها.

3 – الحركة الإسلامية بعد الإستقلال :

3–1– شريعة إسلامية مقابل شرعية ثورية :

بعد أن إلتأمت كل التيارات و التنظيمات الوطنية و السياسية و الإسلامية و القومية لم يعد هناك صوت يرتفع إلا صوت جبهة التحرير الوطني التي استحوذت على العمل السياسي و الثوري من لحظة التحرر من الإستعمار ، وفي هذه الظروف كانت جمعية العلماء المسلمين ، تعاني من الانحسار، ورغم محاولاتها لبعث عملها الإصلاحي و المشاركة في بناء ما بعد الإستقلال عن طريق النوادي والمدارس والوعظ و الإرشاد، إلا أنها اصطدمت بالخط الإيديولوجي الذي تبنته السلطة أو النظام أو الدولة الناشئة و مشروع المجتمع الذي يتناقض مع أفكار الجمعية و توصياتها ، و أستبعد الإسلام الإصلاحي حتى لا يلعب أي دور في تكوين الدولة الجزائرية، بل وحاولت الدولة الناشئة ،إحتوائه أو السيطرة عليها من أجل التمكين الإيديولوجي للإشتراكية االتي كانت الايدولوجيا الأكثر رواجا وإرتباطا بالفكر التحرري ،أثناء الثورة التحريرية بالإضافة لارتباطها بتجارب اشتراكية أخرى و أكثرها تأثيرا تجربة مصر الناصرية ، وفي الحقيقة أن التوجه الإشتراكي في تلك الفترة كان شائعا ويشكل "موضة العصر" خاصة عند دول العالم الثالث التي شهدت حركات تحرر من هيمنة الدول الغربية اللبرالية الاستعمارية.

---

1 نفس المرجع ، ص216

2 أحمد حمدي، مرجع سابق ، ص75

في المقابل كان لجمعية العلماء نشاطا إصلاحيا في تلك الفترة وكانت تود المشاركة في بناء و تطور الجزائر المستقلة ،وكان البشير الإبراهيمي من خلال مقالاته ودروسه يدافع عن التعريب (اللغة العربية) وتطبيق الشريعة وقد وجه العلماء و الدعاة نداءاً للأمة في الوقت الذي بدأت بوادر التوجه العلماني في محاولة لفرض وجودها ، رغم محاولات السلطة الإشهار للاشتراكية بأنها لا تتعارض مع الإسلام ، إلا أن الكثير من الإصلاحيين لم يقتنعوا بهذا المزج ، وكان الإبراهيمي أشد المجاهرين بالرفض لهذا التوجه و كلفه ذلك الإقامة الجبرية و بعد وفاة البشير الإبراهيمي، ظهر حراك آخر في الساحة الإسلامية ربما يكون أكثر تنظيما في معارضة النظام تمثل في تأسيس جمعية القيم 1963/02/09م التي يقول عنها رئيسها **الهاشمي التجاني** أنها (لم تبرز للوجود لملأ الفراغ الذي تركته جمعية العلماء المسلمين ،كما يظن الكثير، وإنما لتحقيق رغبة مؤسسيها في القيام بواجبهم الديني الذي يفرض عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)(1). وقد كان من أبرز أعضائها: عبد الطيف سلطاني، أحمد سحنون، والشيخ مصباح و عمار طالبي ومحمد لكحل شرفاء..

3-2- أنتلجانسيا متدينة :

و بهذا يكون ربما جيل جديد من الإسلاميين قد ظهر على الساحة الجزائرية . لكنها لم تخرج عن الإطار النضالي الذي كانت عليه جمعية العلماء، ومن خلال تركيزها معارضة السياسة تمكين الثقافة الفرنسية و استبعاد اللغة العربية و القيم الإسلامية ، وقد حصلت على بعض التأييد من قبل الوعاظ و الكتاب و الطلبة و تلقت الدعم من قبل أعضاء بارزين في جبهة التحرير و مساندة حتى من الجالية الجزائرية"(2).

أصدرت جمعية القيم مجلة " التهذيب الإسلامي " و اتخذت من نادي الترقي الذي تأسست فيه جمعية العلماء مقراً لها و أصبح لها نشاطات تعدت حدود العاصمة و أنصارا في مناطق متفرقة في فترة الممتدة من (1962 – 1965) و التي تميزت بالنشاط التربوي الديني وذالك " لنشر الفهم السليم للإسلام كعقيدة " ونظام اجتماعي و اقتصادي و معارضتها لنهج الإشتراكي لمشروع اجتماعي، في حين أن الدستور في المادة الثانية يؤكد على أن " الإسلام دين الدولة " "إستراتجية المنفي والتأكيد"3، وفي الحقيقة أن الدول في تلك المرحلة وبعدها لم تتنكر للإسلام رغم هذا التوجه مثل بعض التجارب الأخرى وهذا ما لاحظه (أرنست غيلنر Arnest Gellner) " ومع ذالك فإن الجزائر لم تذهب بعيدا كما هو حال العديد من الأقطار الإسلامية الحديثة الإستقلال ، ولم تضع الإسلام عنوانا فقط فالإسلام الإصلاحي موجود كنوع من الدين القائم، وأثناء الكفاح كان عنصرا اشتراكي موجودا أيضا أمرا حتمي إذا ما أخذنا الفترة التاريخية التي وقعة

---

1 التجاني الهاشمي ، **الإصلاح وجمعية القيم** ، **مجلة موافقات** ، مجلة جامعية للبحوث والدراسات الإسلامية ، الجزائر ، المعهد الوطني العالي لأصول الدين ، جوان 1993 ، ص163

2 نفس المرجع ، ص170

3 التجاني الهاشمي مرجع سابق ،ص505

أثناءها مع الأخذ في الاعتبار هجرة المؤسسات الضخمة من طرف الأوروبيين المغادرين، وأهمية البترول والغاز الطبيعي، كان يعني أن قدرا من الإشتراكية سيصبح أيضا واقعا "(1)

لم تقتنع الكثير من الشرائح بهذا التوجه وهذه المزاوجة الغير شرعية في نظر جمعية القيم، فالإسلاميين كانوا لا يزالون يعتقدون أن الإسلام يشكل مشروعا مجتمعيا متكاملا ومنسجما و غير قابل للنقاش ، بدون حاجة لأي نهج وضعي ، وهذه المعارضة كلفت رئيس الجمعية منصبه كأمين عام لجامعة الجزائر، بعد صراعه داخل الجامعة مع أنصار التيار الشيوعي الذي كان مسيطرا على العمل النقابي وقد شهدت الجامعة أيضا أحد فصول هذا الجدال و الصراع.

استمرت السلطة في فترة بومدين في "فرض الإسلام الإشتراكي بوصفه النموذج الديني" على حد تعبير (أرنيست غيلنز) واستمرت جمعية القيم في مناهضة هذا المشروع، إلى أن أعطت هذه الأخيرة الحجة للنظام لحلها في عام 1966م عندما اتخذت موقفا من قرار القضاء المصري بإعدام (السيد قطب) و مجموعة من الإخوان المسلمين حيث يقول الهاشمي التجاني "كان لزاما على جمعية القيم أن تتخذ موقفا يشرف الإسلام الجزائري ويشرفها فكانت الزيارة للسفير المصري وتسليمه رسالة احتجاجها " فحلت الجمعية لتدخلها في شؤون دولة صديقة و جمد نشاطها الدعوي.

استفادت الحركة الإسلامية من تجربة جمعية القيم و التجارب السابقة ، فاتجهت إلى عدم المواجهة المباشرة مع النظام . خاصة بعدما فرض التضييق و الخناق على العمل الدعوي الذين حاول الجيل الجديد تبني إستراتجية جديدة ومغايرة ومحاولة التكييف مع الأوضاع الجديدة ، في المقابل سعى النظام إلى إتباع سياسة "الإخضاع والدمج" وقد ساعدته الظروف السياسية والمناخ المتوتر الذي كان يعيشه العالم العربي أثناء وبعد الحرب العربية الإسرائيلية 1967م (النكسة) ، وحالة الدعم و التعبئة ، ومشاركة الجزائر في هذه الحرب بالإضافة إلى استثمار النظام في تلك المرحلة لتراث ثوري و الروح الوطنية , و شعارات التنمية و الثورات الثلاث (الزراعة ، الصناعة ، الثقافة) ، والتي تم الترويج لها وتسويقها إعلاميا على أنها تقدم حلولا تنموية شامة، لكنها خلفت وراءها كثير من التوترات الإجتماعية الثقافية الإقتصادية .

4- أدلجة المؤسسات :

4-1 - أدلجة الجامعة :

تغيرت إستراتجية العمل الدعوي وتحول إلى نوع التحفظ و قد وجد الكثير من العاملين بالدعوة الوسط الجامعي ملائما لهذا النشاط ، خاصة وأن كثيرا من العاملين في هذا المجال يشتغلون في هذا الوسط.

وما لبثت أن تحولت الجامعة بؤرة صراع بين المنادون بمشروع المجتمع الإسلامي من جهة ومن جهة أخرى المنادون بالنهج الإشتراكي، وهذه المرة كان الفاعلون الاجتماعيون إما أساتذة أو طلبة و الذين أصبحوا يشكلون الجيل الجديد للدعوة ، و الملاحظ أن تمركزهم كان بشكل لافت في المعاهد الطبية والتقنية والهندسية و العلوم الدقيقة بينما كان مجال تمركز اليساريين في معاهد العلوم الإنسانية ،وهذه الحالة مشابهة

1 أرسنس غيلينز ، **الأساس الاجتماعي للسلفية الجزائرية** ، مرجع سابق ، ص218.

لانتشار التوجهات الإسلامية في الحالة المصرية، وإتخذ الاتجاه الأول من "مالك بن نبي" الذي كان يشتغل مديرا للتعليم العالي في وزارة التربية سنة 1967م . حيث إنتقل بشكل أو بآخر من مؤيد للنظام و مشاريعه إلى معارض لها وبدأ نشاطه في مجال الدعوة من خلال الدروس التي كان ينشطها في بيته دوريا وكان يحضرها جل ممثلي التيارات الإسلامية اليوم.

وهكذا حاولت الحركة الإسلامية من خلال هذا الخيار الاستراتيجي المراهنة على النخبة من الطلبة وبدأت تشهد الجامعة في هذه المرحلة صراعا بين الإسلاميين و اليساريين، فالجامعة التي بدأت تستقطب أجيالا جديدة ومن كل الفئات والشرائح الإجتماعية والمناطق الجغرافية حيث لم يعد التعليم الجامعي حكرا على فئة اجتماعية دون غيرها وكان هذا من نتائج إصلاح التعليم العالي 1971 الذي باشرته الدولة كجزء من المشروع الاجتماعي الذي تبنته وبدأ الوسط الجامعي يشهد نوع من الحركية النسبية مقارنة ببعض المؤسسات الأخرى نظرا لفعالية التنظيمات ذات التوجهات الإسلامية، التي حاولت بعث العمل الإصلاحي برؤية جديدة، في موازاة عمل الدولة الساعي إلى احتواء الإيديولوجيا الإصلاحية وتنظيم الندوات والملتقيات وكان لفاعلية **مالك بن نبي** في هذه الفترة دورا في تشكيل "منظمات طلابية" والتي بدأت بفتح المسجد 1968 م بالجامعة المركزية وكذا تنظيم ملتقيات الفكر الإسلامي، والتي أسهمت بشكل كبير في تأطير العمل الدعوي وتعزيز المشروع الإسلامي، فهذه الملتقيات كانت تستقطب العلماء والدعاة من أنحاء العالم فكانت مصدرا لانتقال التوجهات الإسلامية المشرقية إلى صفوف الناشطين في العمل الدعوي في الجزائر، وعندما شعرت الدولة بتأثير هذه الملتقيات و الندوات و أحست أنه يمكن استغلالها لترويج لمشروعية النظام أعطتها صبغة رسمية وثبتتها كشكل من أشكال الاستحواذ على العمل الديني وتوجيهه.

لقد أسهمت هذه الحركية في بعث الدعوى في الجامعة و كان من أهم المظاهر التي تدل على ذلك ظاهرة ارتداء الحجاب "وأول مثل على ذلك بدأ بظهور في حرم الجامعة عام 1967م" وبدأ بانتشار سريع في كل المعاهد و الفروع الجامعية . وتحت ضغط اليساريين الناقدين في الوسط الجامعي بالإضافة إلى أن النظام كان يشكك في نوايا

المد الإسلامي . تراجع إلى حد كبير الإسلاميين في الوسط الجامعي خاصة بعد الصدمات التي وقع بين التوجهيين بسبب سياسة التعريب التي باشرها النظام.

4-2- توظيف المسجد:

أعطى المسجد البديل المناسب للإسلاميين نظرا للظروف التي لم تكن مساعدة للعمل بشكل أكثر وضوحا، فالمساجد مكان لا يمكن أن ينافسهم فيه أي تيار، و حتى الدولة لم تكن تستطيع فرض الرقابة الصارمة على كل المساجد و أماكن الصلاة (المصليات) ،التي بدأت تنتشر في كامل البلاد بالإضافة إلى تضاعف عدد المساجد في تلك المرحلة بفعل و قيام الإسلاميين ببناء المساجد عن طريق جمع التبرعات دون الاستعانة على إعتمادات الدولة التي رغم محاولاتها تأطير المساجد إلا أنها لم تتمكن من تغطيتها كليا ، وهكذا ظهر شكلين من المساجد واحدة رسمية تحت سيطرة وزارة الشؤون الدينية ومراقبتها، وأخرى غير رسمية تحت نفوذ الإسلاميين بشتى أطيافهم.

وقد سعت الدولة إلى استخدام المساجد لشرعنة الخطوات الإصلاحية التي قامت بها (الثورات الثلاثة ، قانون الأسرة ....) وذالك بالإعتماد على توظيف الخطاب المسجدي الذي كان يمثل الخطاب الرسمي في المساجد التي تحت إشراف الدولة في مقابل الخطاب الرافض لهذه الإصلاحات وجد في المساجد الغير رسمية المكان الملائم لانتقاد سياسيات الدولة في هذا الإطار وهكذا أقحمت المساجد في الصراع الإيديولوجي، وكمثال على ذالك الاستفتاء على الميثاق الوطني 1976م هاجمه الإسلاميين على منابر المساجد و أطلقت عليه تهكما "النفاق الوطني" .

ومع حلول الثمانينات ازداد نفوذ الإسلاميين على المساجد نظرا لتغير السياسي في هرم السلطة بعد وفاة **هواري بومدين** 1979م والسياسة المتبعة التي اعتمدت على نوع من الانفتاح السياسي والاقتصادي ،وكان ذلك في صالح الإسلاميين الذين زادوا من نشاطهم الدعوي ، فقد إمتدح رمضاني عبد المالك* " تلك الفترة كثرت المساجد وازدحمت بأهلها وكادت العقيدة السلفية تتبوأ من الديار الجزائرية مبوأ صدق" ، ولقد بدأ الخطاب المسجدي يتوجه نحو السياسة من خلال انتقاد السياسات القائمة ومحاربة إقناع المواطن بضرورة "اسلمة المجتمع" مستغلة في ذلك الظروف الإجتماعية والثقافية والاقتصادية التي آلت إليها البلاد جراء هذه السياسات الفاشلة و الأوقات التي شهدها بالأخص المدن الكبرى "فالوعظ يبدأ من المساجد ويعكس حساسية خاصة حيال المسألة الإجتماعية "

وكان للمسجد في تلك المرحلة تأثيرا على مكانة "الإسلام الشعبي" وذلك من خلال إدانة الانحراف ، حيث تولى بعض الشباب الملتزمين العمل كأئمة متطوعين في المساجد التي لا تأطر رسميا من الدولة وبعيدة عن الرقابة ، وعمد هؤلاء على إقحام الناس في الصراع بين "الإسلام الإصلاحي"بشكله الجديد وبين "الإسلام الشعبي" الذي يتميز بالعفوية و الذي هو متوارث عبر الأجيال ويشكل جزءا من التراث المحلي وفيه العديد من الممارسات الصوفية ، وقد ظهرت بعض مظاهر التوتر مع الطرقيين، كان من أهمها تهديم بعض الأضرحة و الأماكن التي يتردد عليها مريدو هذا الشكل من التدين ، وتكفير الكثير من القائمين على هذا الموروث وازداد وهج الإسلاميين خاصة بعد أولى الانتصارات التي حققها دعاة أسلمت المجتمع ، خارج الحدود كان هناك الحدث مصدر إلهامهم سنة 1979م إطاحة **الثورة الإسلامية الإيرانية** بقيادة الخميني لنظام الشاه ، والتي بعثت الروح والإلهام والأحلام لدى الجماعات الإسلامية في كل أقطار العالم العربي و الإسلامي ، وأعتبرت تجربة ناجحة يمكن الإقتداء بها للتغير، وقد كان لهذا الحدث تأثير كبير في تغيير إستراتجية الحركات الإسلامية في الوطن العربي ، حيث انتقلت من مرحلة العمل السري الذي يفضل البقاء خلف الواجهة إلى العمل التعبوي أي المواجهة ، وكان هذا حال قسم مهم من الحركة الإسلامية الجزائرية التي تبنت مفهوم "**الصحوة**" والتنظيمات الحركية السياسية بدلا من مفهوم الإصلاح . الذي يستهدف الجانب الثقافي و التعليمي والتربوي والحفاظ على الهوية ولا يضع الجانب السياسي في صلب اهتماماته .

***قائمة المراجع :**

1- جورج الراسي ، **الدين و الدولة في الجزائر**، دار القصبة، الجزائر. ،2008 .

2- مايكل ويليس ، **التحدي الإسلامي في الجزائر الجذور التاريخية والسياسية لصعود الحركة الإسلامية** ، شركة المطبوعات ، بيروت ، ط1 ، 1999 .

3- أحمد حمدي ، **جذور الخطاب الإيديولوجي الجزائري** ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، 2001 ..

4 -Ali Mered : **le réformisme musulman en Algérie de 1926 a 1940**, karan , paris ,1971

5-Charles robert Augeron , **les algérienne musulmans et la France** ,(1977 – 1919) , vol : II , paris , 1968 .

6- عبد الرحمن بن إبراهيم العقون، **الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصرة الفترة الأولى 1920- 1926** ، ج1 ، ط1 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 .

7 -lahouari Addi , L'**impasse du populisme**, ENAL , Alger , 1940 .

8- أرنست غيليز، **الأساس الاجتماعي لسلفية الجزائرية** : تر : أبو بكر باقادر ، **مجلة الاجتهاد** ، العدد 47 – 48 .

9- التجاني الهاشمي ، **الإصلاح وجمعية القيم** ، **مجلة موافقات** ، مجلة جامعية للبحوث والدراسات الإسلامية ، الجزائر ، المعهد الوطني العالي لأصول الدين ، جوان 1993 .